

## خواطر سائح في بلاد كَبْدُوقِيَّة: معابد ومناسك وأيقونات وحضارة فريدة

الأب سليم دنگاش اليسوعي<sup>٥</sup>

زرتُ تركيا مرّةً أولى سابقًا وطفقتُ بين أنطاليا وأفروديسياس وأنفس ومرمانا ومدن الساحل، واكتشفتُ حينذاك ما اكتشفتُ من الثروات التاريخية الحضارية، ولكن لم يتسنَّ لي رؤية كَبْدُوقِيَّة، في قلب البلاد. فصمّمتُ، في الصيف الماضي، أنا وأحد رفاقي، أن نتوجّه إلى تلك الناحية التي يعرفها الكثير من الأوروبيين والأميركيين وغيرهم، في حين تبقى مجهولة لدى أبناء الشرق الذين يعرفون طور عابدين وبرّ الأناضول أكثر من غيرها في تركيا. «كَبْدُوقِيَّة» اسم عرفته قديمًا عند ذكر آباء الكنيسة الكبدوقيين، الأقمار الثلاثة، ياسيليوس القيصريّ وغريغوريوس التيصيّ وغريغوريوس النيزيانزيّ. وهذه دلالة على أنّ تلك البلاد كان لها مع المسيحية تاريخٌ طويل مدّ جذوره في أرضها، وهي جذور لا زالت آثارها باقية حتّى اليوم، وما بقي من الآثار يبقى الماضي العريق. ومن يجهل كبدوقية المنارة التي ازدهرت فيها الحياة الرهبانية أيّما ازدهار، وتعمّدت فيها المناسك والمقارر والأديار، إلى جانب مصر وسوريا وفلسطين وبلاد ما بين النهرين؟

---

(٥) رئيس تحرير المشرق.

## أدب الرحلات والسياسة في «المشرق»

يحتاز أدب الرحلات والسياسة في مجلة المشرق بموقع بارز منذ نشأتها في العام ١٨٩٨، حيث توالت الأعلام على تحرير هذا الصنف من المقالات نظراً إلى قيمتها ومنفتحتها، وخصوصاً في الحقبة الأولى من هذا القرن الذي لم يكن قد عرف الطائرة والسيارة وسواها من وسائل النقل السريع... والمقال في الرحلة والسياسة يخضع لعمدة شروط:

- ليس مقالاً صحافياً سريعاً يتوقف على رصف المشاهدات السطحية العابرة، بل هو مقال يتوسع في المطالمة والعرض والإنشاء. حتى تخال نفسك أنك ترى ما يراه الكاتب.  
- يكتب مقالاً في هذا الأدب من قام هو نفسه برحلة إلى منطقة معينة، حيث يكون قد شاهد بالبان حالة البلد وأطلع على وضعه ووقف على آثاره وأحواله. فلا يكون المقال نقلًا عن كتاب أو موسوعة أو حتى عن مشاهد آخر، بل نقل مباشر عن الواقع الحي الذي شاهده صاحب الرحلة.

- ويكون المقال عملياً حيث يصف بدقة، إلا أنه ليس بالضرورة مقالاً يدخل في التفاصيل الدقيقة التي يملأها القارئ.

من الأعلام التي كتبت في المشرق: الآباء السرحيون شيخو ولائس وجورج ررونزقال ودي أنسلم وجوليان ومالون ودوران وتوتل؛ والكهنة لويس لوروا وحرفوش وساره رشلي؛ وبعض العلماتين أمثال الدكتور موسىل والصيدلي جنداه رعد والأديب حبيب فريحة والأديب فؤاد أفرام البستاني وغيرهم.

ومن البلاد التي جال فيها السياح أصحاب المقالات، في لبنان: مناطق البترون وبيشري وعكار ومان الحجر والمترلة وإقليم الخروب وكسروان والشوف وغيرها؛ وفي سوريا: مناطق حماه وحلب وناحية المدن العشر وتلمر وجبل الشيخ وحوران والصالحية والمرقب؛ وفي مصر زار الكاتب مناطق الصعيد والأقصر وأسوان... وتتوسع الدائرة لتصل إلى فلسطين وتركيا والمملكة العربية السعودية والمراق وسويسرا وسواها. والطريف أن بعض هذه المقالات مؤتمن بالصور والرسوم والخرائط دلالة على شغف الكاتب بأدب الرحلات والسياسة.

وهنا الأدب ربما سقط اليوم في النسيان مع تطور وسائل النقل وازدياد الحركة السياحية من بلاد إلى أخرى بشكل ملحوظ. إذ إن تركيا وحدها يدخلها كل سنة حوالي التسعة ملايين سائح، ولبنان ما قبل الحرب كان يزوره أكثر من ثلاثة ملايين سائح. إلا أن هذا الأدب يبقى حياً ومفيداً، إذ هو تمييز عن اختبار شخصي ومعاناة مميّزة لاكتشاف ونظرة ومشاهدة. ألم يقل مرتين إن المعرفة الصحيحة والتربية الأكيدة هي التي يكتبها الإنسان في أسفاره؟

## الطريق من أنطاليا إلى كبدوقية

في صبيحة الأوّل من شهر آب ١٩٩٧ انطلقنا بسيارة مستأجرة في أنطاليا إلى الداخل التركي فالأناضول، حيث تقع بلاد كبدوقية التي تبلغ مساحتها حوالي الثماني مرّات مساحة لبنان، أي ما يتجاوز الـ ٧٥ ألف كيلومتر مربع. أخذنا الطريق جنوباً باتجاه طرسوس، ثم انحرفنا يسرة عند مدينة مانافوس صعوداً صوب أكسبكي، ثم سيديشهير وبعدها يشهير، حيث توقّفنا لزيارة أحد الجوامع الشهيرة في تركيا، وهو جامع أشرف يلو، ذو القباب السبع (من القرن الثالث عشر) وقد بناه الحاكم أشرف السلجوقي. وما يميّز هذا الجامع الذي صمّمه المهندسون السلجوقيون هو مجموعة العواميد من خشب الأرز، وهي محفوظة من دون تبديل من القرن الثالث عشر، إلى جانب الخزف المطلّي المزخرف عند المحراب والمنبر. ومع زخّات المطر الغزير الذي أغرق منطقة الأناضول يومذاك بكميّات كبيرة من المياه ورتّباً أتلّف محصول القمح الذي لم يكن قد حُصّد بعد، انطلقنا من يشهير إلى قونية، مدينة مولانا جلال الدين الرومي، لزيارة ضريحه وتكّيته. قونية هي إيقونية التي جعلها الأباطرة الرومانيون بحلّة بيهة، ومكث فيها القديسان بولس وبرنابا في السنوات ٤٧، ٥٠ و٥٣ أثناء أسفارهما الرسوليّة في آسيا الوسطى. وبعد أن أحرق الأتراك السلجوقيون المدينة في منتصف القرن الحادي عشر، أصبحت عاصمة السلطنة وتحوّلت سريعاً إلى مدينة لها قدسيّتها، إذ إنّ القرن الثالث عشر شهد صعود نجم جلال الدين الرومي (١٢٠٧-١٢٧٣م) الذي أخذ يعلم العلوم القرآنيّة في المدينة منذ ١٢٤٠ ميلاديّة، ثم أسس جمعيّة الدراويش في نهاية حياته. دخلنا قونية وتوجّهنا بين المناثر ودور العبادة إلى ضريح مولانا في مبنى يُزَيَّنُ واجهة برجه الرئيسيّ الخزف الأخضر المزخرف. وهذا المبنى الذي أصبح في جمهوريّة ألتاتورك العلمانيّة متحف الفنّ الإسلاميّ، هو الآستانة يحوزور (بالفارسيّة)، أي عتبة الحضرة. إنّه البيت الأمّ لكلّ أديار الدراويش في الأناضول وسوريا ولبنان ومصر. تدخل هذا المتحف فتشاهد بعينيك قبر مولانا جلال الدين الرومي

وكذلك قبر مولانا السلطان الولد، أي ابن جلال الدين الرومي. وإلى جانب القاعة الكبرى التي تحوي القبرين والكثير من الأشياء التذكارية، تشجبه إلى صالة السمع التي بناها سليمان العظيم، وهي تحتوي الكثير من آلات الموسيقى، وكذلك كعب الموسيقى الصوتية التي كان يستعملها الدراويش في رقصهم الذي توقّف رسمياً سنة ١٩٢٥ بقرار من الحكومة التركية. أمّا القسم الباقي من المبنى أو دير الدراويش فإنّه تحوّل إلى متحف يُعرض فيه أئمن السجاد من الأناضول، وخصوصاً السجاد الكيليم الذي ما يزال يُصنع بحسب التقنيات السلجوقية القديمة من القرن الثالث عشر.

أمّا رقصه الدراويش فإنّها ما زالت تُقام سنويًا ولأسبوع من الزمن في شهر أيلول بمدينة قونية نفسها وفي كلّ عام. في حين أنّ فرقًا أخرى من الدراويش تقدّم رقصها مرّة في الأسبوع في إسطنبول وغيرها من المدن التركية. وهذا يعني أنّ جمعية الدراويش التي كان حكم أتاتورك قد قرّر وقف نشاطها ما زالت تعمل وإن بصورة سرّية. وهذه الرقصة وهي استكمال حلقات الذكر التي يعقدونها للتأمل حتّى الانخراط، ترمز إلى تصوّر كونيّ للتاريخ والعالم. فالرقص هو صلاة ترفع إلى الكائن الأسمى، وعبرها ينخطف الدراويش في الله. وللرقص أيضًا طقسه: فالثوب الأبيض هو ثوب الحداد، والمعطف الأسود هو القبر، والقبعة هي حجر القبر، في حين أنّ الشيخ، وهو خليفة جلال الدين، سحر اللقاء بين الزمنيّ واللازميّ. ومجمل الرقص وحركاته يرمز إلى اللقاء بين الإلهيّ والعالميّ، بين الله والبشر، والدرويش هو الوسيط، يرفع يمينه لأخذ النعمة من الله ويخفض يساره ليعطيها البشر ويتحرّر من معطفه الأسود علامة الرحلة بالله والقيامة.

وتترك ضريح جلال الدين الروميّ والرهبنة تراقنا وكذلك المطر الغزير وتنطلق إلى محطّتنا الأولى، مدينة أكساراي، ثمّ مدينة نقشهير محطّتنا الثانية. وتتوقّف قبل الوصول إلى أكساراي عند مبنى مستطيل كبير عرفنا عند الوقوف أمامه أنّه السلطاناه، خان القوافل والمسافرين في.

القرن الثالث عشر، وقد بناه السلطان قیقات الأول علاء الدين وهو من أجمل الخانات السلجوقية في تركيا، وتشهد على ذلك الزخارف والنقوش على بوابته الرئيسية والإيوان الفسيح الذي يتسع لمئات المسافرين مع جمالهم ودوابهم. وإلى جنوب غربي أكساراي، يترأى للعيان من بعد جبل حسن (حسن دايب)، وهو كناية عن سلسلة بركانية تعلو المنطقة كلها، وسلسلة حسن دايب هي إرسييس دايب البركانية المطلّة على مدينة قيصريّة كبدوقية الشهيرة.

وبعد سلطانهان، تتوقف قليلاً في نقشير للاستراحة من عناء مئة وخمسين كيلومتراً من السفر في سهوب الأناضول الغنية بزراعة القمح ومختلف أنواع الحبوب. أمّا مدينة نقشير فتبت مثل واحة في السهل، وهي بموقعها مفتاح منطقة كبدوقية الداخلية من ناحية قونية، في حين أنّ كيرشهير هي المفتاح من ناحية أنقرة.

### في قلب كبدوقية

في قلب السهوب الصحراوية التي تعصف فيها العواصف والتي يقطعها الذئاب إلى جانب قطمان الماشية، تقع منطقة غريبة بتكوينها وتضاريسها، حيث إنّ الحمم البركانية التي تساقطت سيولاً على المنطقة في أثناء الحقبة الجيولوجية الثالثة من جبل حسن دايب وإرسييس دايب حوّلت كبدوقية الداخلية إلى بحرٍ من صخور الرمل القاسي ذي اللونين الأحمر والأصفر. وتختفي زراعة القمح لتحلّ مكانها حقول البطاطس والبقول والخضراوات، في حين أنّ تلال الرمال الصخرية تتكاثر هنا وهناك، بأشكال هندسية مختلفة، معبرة رائعة. وتتوالى الوديان والسواقي تحت ضغط المياه الغزيرة والهواء الشديد خصوصاً في فصل الشتاء. وعندما تشاهد الصخرة الرملية الأولى الهائلة على طريق نقشير في محلة أوتشيزار، فإنّك تبقى أسير الصدمة والذهول والتعجب أمام تلك القلوب المتمددة فيها، وهي كناية عن نوافذ أو أبواب المنازل التي حفرها الإنسان في تلك الصخرة منذ القِدَم. أوتشيزار المحطة الأولى، هي مجموعة كبيرة

من الصخور المختلفة الأحجام والأشكال، وقد سكنها أو يسكنها أبناء آدم، إلا أنها كما عرفنا هي اليوم ملك الدولة التركية ولا يُسمح لأحد أن يغيّر فيها شيئاً. وإلى جانب الصخور المثقوبة، فإنّ تلالاً متشابكة متلاصقة من الصخور الرملية تبدو كأنّها كُتِب الرمال في الصحراء. وتتجاوز أرتشيزار إلى البلدة الرئيسيّة في كَبْدُوقِيَة وهي أفيشلار - غوريمي حيث وصلنا في حوالي الساعة الخامسة والنصف مساءً، والشمس في المغيّب تلقي ببعض خيوطها الشقر على الوادي، وادي القديسين، وادي الكنائس. هذه المنطقة أو هذه المَئِيهَة المزروعة بالقمح والتلال من مختلف المقاييس؛ هذه الأرض ذات الألفاظ والأسرار كانت ملجأ للناس منذ عصور بعيدة، وهي اجتذبت إليها آلاف مؤلّفة من الذين كرسوا أنفسهم للصلاة والتأمل والعبادة والتسك منذ بداية المسيحيّة. وخير شاهد على ذلك المئات من المناسك والأديرة والكنائس الصخرية التي تراها عند كلّ صخرة أو هضبة أو وادٍ وكأنّ الأرض زرعت مزروعاتها. والمعروف أنّ عدد الكنائس كان يتجاوز الثلاثة آلاف على ذمّة الراوي، إلا أنّ ما بقي منها ليومنا هذا هو ثلاثماية وخمسون، منها مئة وخمسون كنيسة في حالة قريبة من المقبول.

### غوريمي

في بلدة غوريمي، أي «البلدة التي لا وصف لها»، بدأ إنشاء المزارات والمناسك ابتداء من القرن السادس، إلا أنّ ازدهار الحياة المسيحيّة فيها وصل إلى أوجّه في القرن التاسع وبعده. وكانت البلدة معروفة، في أثناء القرن الحادي عشر، بكنيسة توكاله، حيث كان العديد منّ اعتنقوا الحياة الرهبانيّة يقطنون حوالي ثلاثين ديرًا ومنسكًا. والكنائس هي من صنفين: الأوّل تأثّر بالقرنّ السعبيّ البسيط، ككنائس القديسة بربارة، وباسيليوس، والكنيسة ذات الحية؛ والثاني يسمي إلى فنّ آخر أكثر كلاسيكيّة ورونقًا، تحقّق بطلب من الأشراف وبدعم منهم، مثل الكنيسة القائمة والكنيسة ذات التّفاحة والكنيسة ذات النعل. بالإجمال في

هذه الكنائس وفي كنائس كبدوقية، الوضع محزن ومخزٍ حيث إنّ المناخ القاسي كان وراء خراب بعضها وأمحاء الألوان عن التصاوير. وما عجز عنه المناخ بشمسهِ وهوائهِ ومطرهِ وجليده أكملته يد الإنسان، فلا ترى وجهًا إلّا وقد أزيلت عيناه ولا قديسًا إلّا ونال قسطه من التشويه المقصود. فالحكومة التركية تقوم ما بوسعها لحفظ هذا التراث العالمي من العبث والخراب، وقد وضعت مشروعًا لذلك منذ ١٩٨٢، والأونيسكو وضعت منطقة غوريي الأثرية على لائحة التراث العالمي منذ العام ١٩٨٥. إلّا أنّ الوسائل التي جُنّدت لحماية الرسوم والتصاوير في الكنائس ليست كافية، لأنّ أكثر من خمسة آلاف زائر يوميًا يؤمّون هذه المعابد، ويصدر منهم من أكسيد الكاربون ما يقضي على الجماد والشكل واللون.

تتوقّف عند ثلاث كنائس في غوريي:

- كنيسة القديسة بربارة ذات التصاوير البسيطة والأعمدة المحفورة حفرةً في الصخر، ومنه تكثُر فيها رسوم الصليبان باللون الأحمر علامة الفداء. الرسوم هي على الصخر مباشرة، ورواج الصليبان في كنائس كبدوقية يعود إلى عبادة الصليب المقدّس إثر اكتشاف عود الصليب على يد القديسة هيلانة في القرن الرابع. على جدران الكنيسة تبدو لوحات متعدّدة للقديسة برباره، والقديسين جاورجيوس، قاتل الثنين، والقديس تاودورس، والعذراء مريم. في حين أنّ السيّد المسيح يحتلّ مركز الصدارة التقليدي في وسط القبة. وتبيّن أيضًا رسمًا غريبًا يبدو فيه ديك من الديوك وسط صليبين ونوع من الجنّ، ورّمًا كان هذا المشهد يرمز إلى حادثة تعزيم (طرد الشيطان).

- كنيسة توكاله، وهي من كنائس غوريي الفريدة وأثر عظيم. السّياح جميعًا يزورون هذا الأثر نظرًا إلى قيمته الاستثنائية، وقد تمّ بناؤه في القرن العاشر على مرحلتين، وبالتالي فهو يضمّ كنيستين، توكاله الأولى وتوكاله الثانية.

الكنيسة الأولى، من القرن العاشر، تتألّف من ممرّ فسيح يؤدي إلى صحن الكنيسة المتوازي الضلعين ومن قبة مزينة، هي وجدراتها،

بالزيتيات والرسوم ذات النوع القديم، وتمثل حلقتين مزدوجتين لطفولة السيد المسيح وآلامه.

أما الكنيسة الثانية، وهي قد حفرت لاحقًا في الصخر حفرةً فنيًا جيدًا، فإنها مؤلفة من صحن كبير ومن قبة زرقاء لازوردية، تركز على جدران تتعدّد فيها الرسوم الزيتية ذات الفنّ العالي الإتقان، وهي تمثل مختلف أعياد السنة الكبيرة: كالبشارة والولادة والتجلي والصلب والصعود والعصرة ونياحة العذراء، وهذا الموضوع الأخير هو الغالب في كنائس كبدوقية لما للعذراء مريم من حضور وتكريم، وهي قد تنيحت في أفسس بآسيا الصغرى. وبما أنّ موضوع الرسالة كان له وقعه آنذاك، فإنّ رسمًا للرسل يمثلهم في وضع إعلان البشرى على الجهة اليمنى للقبة. وإلى رسم للعذراء مريم الحنونة تراها في أحد التجاويف، فإنّ وسط القبا يبرز حادثة الصلب، في حين أنّ السيد على عرشه أخذ مكانه على يسار القبا.

أما الكنيسة الثالثة التي تدخلها بشيء من الرهبة والاندھاش فهي الكنيسة القائمة، وقد سُميت بهذا الاسم لأنّ نور الخارج لا يدخلها إلّا بصورة غير مباشرة، وهذا ما أتاح للتصاوير والأيقونات أن تبقى في مأمن من عوامل التآكل والتبدّل. فاللازورد منبسط على جدرانها وقباها وقيها بكثرة، والأيقونات التي تغطي كلّ المساحة المحفورة في الصخر تمثل وجوهًا متعدّدة من حياة السيد، ومنها خيانة يهوذا، وهو مشهد رائع يروي بحركته علاقة السيد برسله واحدًا واحدًا.

وهذه الكنيسة، كما هو بين، هي كنيسة دير رئيسي في غورمي، حيث تزور إلى جانبها قاعة الطعام وبيت المونة والمطبخ، في حين أنّ المناسك تتكاثر حولها. وهذا الدير حثّو من أيام النهضة الرهبانية في كبدوقية، حيث إنّ الحياة النسيكية، بعد وُهن أصابها من بداية القرن الثامن حتّى منتصف القرن التاسع، عادت فاشتدّ ساعدها في نهاية القرن التاسع وبعده حتّى القرن الثاني عشر. المعروف أنّ الرهبانية، في إطار القنويون أو دير الجماعة، أسسها باخوميوس في القرن الرابع بمصر، حيث أعلى

من شأن الحياة الجماعية على الحياة الانفرادية وتجاوزاتها. في كبدوقيه، أدخل باسيليوس القيصري الحياة الديرية الجماعية إلى البلاد، إلا أنه أسسها على قانون القديس باسيليوس الذي يشدد على التمثل بالإنجيل ومقتضياته، فنشأت المستعمرات الرهبانية إلى جانب البلدان والقرى، كشواهد رسولية إنجيلية، يلتقي الرهبان فيها حول مائدة بسيطة يصلون معًا سبع مرّات في اليوم، في حين أنّ بعضهم كانوا يستطيعون التريّض والاختلاء في المناسك المحفورة في طرارة الصخور الرملية. طريق رهبان كبدوقية لم تكن الصحراء والبراري بل حياة مرتبطة بالأرض والمؤمنين والكنيسة الأسقفية، حيث إنّ الدير الذي كان يتجاوز عدد سكّانه الثمانية كان حكمًا تحت سلطة الأسقف، خصوصًا في ما يخصّ رسم الأيقونات وزيتها وموضوعاتها.

ونتقل من غوريمي، بعد أن أمضينا الليل في أحد الفنادق الجديدة المريحة فيها، إلى أفانوس حيث زرنا مصانع الفخّار، وهي صناعة قديمة جدًّا، إذ إنّ نوعية التراب الأحمر هناك ساعدت الإنسان في تطوير تقنية صناعة الفخّار والأواني وغيرها. ونعرج على كنيسة من الكنائس المتعدّدة في المنطقة فتحتي فيها أمام رسوم صليبان على جدرانها، رسوم ازدهرت في مرحلة تحطيم الأيقونات (Période iconoclaste)، وكانت عبادة الصليب ازدادت بعد القرن الرابع كما ذكرنا آنفًا. والصليب على أنواع في كنائس كبدوقية: الصليب المرسوم على الطريقة اللاتينية في المعابد القديمة العهد، والصليب المرصع بالأحجار الكريمة، والصليب ذو الكرات، والصليب المشعب الرؤوس المستنّة أو ذو السنين ونجده بكثرة في الكنائس المارونية القديمة بشمال لبنان، والصليب الذي تحمله الأمباطورة هيلانة بيدها. فهو علامة النصر وعلامة تكريس السيد الضابط الكلّ المعابد كلّها.

## مدن تحت الأرض

لا حدّ للمفاجآت في كبدوقية، وخصوصًا في وسطها. لقد عرفنا

بوجود مدنٍ تحت الأرض، مدن سراديب وأنفاق، منذ لحظة وصولنا الأولى. توجّهنا إلى واحدةٍ من هذه المدن، وعددها يفوق المئة، فإذا بنا أمام فتحةٍ مترسّطة تقود إلى درج، ثمّ إلى نفقٍ، ثمّ إلى مدينة أنفاق وممرّات وفسحات وقاعات وكنائس وسراديب وبيوت للمونة والماشية. نزل طابَقًا ثمّ ننقل إلى طابَقٍ سفليٍّ آخر، فتتوّع أنّ تنتهي الرحلة هناك، إلّا أنّ الدليل التركيّ المرافق الذي لم يلاحظ رهبتنا ورعبنا، أشار إلى درج طويل يقودنا إلى مجموعةٍ أخرى من الطوابق السفليّة، إلى أن نزلنا خمسين مترًا في عمق أرض كبدوقية.

### ما قصّة مدن الأنفاق هذه؟

قمنا بزيارة مدينة تحت الأرض هي كإبماكله وهي واحدة من تلك المدن التي حفرها الإنسان عبر الأجيال تحت الأرض، أو بالأحرى تحت مدينة أو بلدة ظاهرة يعيش فيها، فكان له بيته في أيام السلم والهدوء وبيتٌ آخر في الأنفاق أيام الحروب والاضطهادات. في باطن أرض كبدوقية الطرية، المكوّنة من الرواسب البركانيّة، حفر الناس ملاجئ وأنفاقًا، منها ما وصل إلى أحد عشر طابَقًا تحت الأرض، فتكوّنت مدينة تحت مدينة أخرى، لها نظامها الهندسيّ المتكامل، من التخزين والتهرية وجرّ المياه ودفعها إلى الخارج، وخصوصًا نظام الحماية الأمنيّة للدفاع عن ساكني تلك الأنفاق من هجمات الغزاة. والمعروف بالاستناد إلى الوثائق التاريخيّة، أنّ المسيحيّين عاشوا طويلًا في تلك الملاجئ، ليتداركوا هجمات الفرس والمغول، إلّا أنّ، على الأرجح، لتلك المدن تحت الأرض تاريخها الطويل منذ الحثّيين وغيرهم.

### مصطفى باشا وأثار حديثة شاهدة

على مسافة خمسة عشر كيلومترًا جنوب شرقيّ غوريي، تقع بلدة مصطفى باشا، وهي من البلدات التي تسرعى انتباه السيّاح الأجانب والمحليّين. والواقع أنّ الطريق إلى مصطفى باشا تذخر بالمنازل

والحارات والأبنية القديمة بعض الشيء، وهندستها تدلّ على أنّها من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، أي من الحقبة العثمانية. هذه المنازل غير المأهولة هي بالمئات، وقد قطنها المسيحيون البيزنطيون سكّان كبدوقية الأصليين، إلّا أنّهم أُجبروا على مغادرتها في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن عندما تمّ استبدال السكّان المسلمين القاطنين على الأرض اليونانية بالسكّان المسيحيين في كبدوقية، وقد حلّ بعض هؤلاء على الأراضي التي كان يسكنها المسيحيون، إلّا أنّ أقلّية منهم فقط سكنت في المنازل ذات الطراز الهندسي الرفيع المقبّب والمزخرف.

مصطفى باشا هي مدينة كانت تسمّى سينوزون أو سينوزس، وقد زرنا فيها فندقاً شيد في نهاية القرن التاسع عشر، وعلمنا لاحقاً أنّ ذلك الفندق كان ديرًا يقيم فيه الرهبان. وانتقل من مصطفى باشا، وكاتدرائية المسيحيين المقفلة، الشاهد على العلاقة السيئة بين اليونان وتركيا حتى اليوم، إلى متلقة غولو ديري وكيزيل ديري (الدير الأحمر) وهما واديان يغلب عليهما اللونان الوردّي والأحمر، ممّا يدفع السّياح إليهما لمشاهدة غياب الشمس عن تلك المنطقة التي تشبه سطح القمر. وعلى مثال كلّ وادٍ في كبدوقية، تخفي الصخور هنا وهناك الكثير من شواهد الحياة المسيحية، كالعناسك والكنائس الصخرية المزينة بالصلبان أو الأيقونات. ففي وادي غولو ديري، وبالرغم من خفوت نور الشمس، كان من الواجب زيارة كنيسة مار يوحنا، وهي كناية عن صخرة كبيرة على شكل هرم، زُرعت زرعًا في الوادي بين الكروم والحقول، فجاءها الراحب المتعبّد ففتح فيها فجوة كبيرة في وسطها حيث الكنيسة، في حين أنّ في القسم الأعلى تمّ حفر القلاوي لتصبح سكن بعض الرهبان الزهاد.

### إيهلارا ووادي بيرستريما والكنيسة الحمراء

ونمضي ليلة أخرى في «فندق الشرق» في غوريمي ونندرق عشية بعض الأطباق التركية المحليّة، ثمّ نتقل صباحًا إلى وجهتنا الأخيرة في كبدوقية، إلى وادي بيرستريما المقدّس، وله بالحياة الرهبانية الشرقية

علاقة مميزة. وادي بيرستريما شقته مياه نهر ميلينديز سويو الجرافة وهو يحتوي على مجموعة كبيرة من الكنائس والأديار المحفورة، هذه المرة، في الصخر الكلسي القاسي، وهو أيضًا يقسم إلى قسمين: مجموعة كنائس إيهلارا ومزاراتها، ومجموعة كنائس بليسيرما ومزاراتها.

في وادي إيهلارا التي زرناها ولم نستطع زيارة رديفتها بليسيرما لضيق الوقت، مجموعة من الكنائس يتجاوز عددها الثلاثين، والكثير من المغاور والمناسك التي قطنها رهبان كبدرقية. وفي غالبية الكنائس، تستطيع أن تشاهد الأيقونات البنية الجميلة، أو ما بقي منها، التي رسمها الفنانون من رهبان وعلمانيين منذ القرن التاسع ميلادي، وهذا ما يجمع عليه علماء الآثار والزيتيات. الألوان حية غير فاقعة، واللحمة سريعة، والتباين بين الفاتح والداكن مشغول بدقة ستاهية تمُّ على براعة وإحساس. والتأثير الشرقي القبطي والسرياني واضح في زيتيات كنائس إيهلارا، حتى نخال نفسك في الشرق نفسه، ومعلوم أنّ الكثير من الرهبان الأقباط والسريان قد سكنوا هذا الوادي مع الرهبان البيزنطيين بعد القرن السابع، إثر فتح بلدان المشرق على يد المسلمين. وقد نقل الرهبان معهم فلسفة للحياة الرهبانية مفايرة للفلسفة اليونانية، ومجموعة من المخطوطات المصوّرة والمزينة بالرسوم المسيحية المختلفة والتقاليد الشرقية التي أصبحت جزءًا لا يتجزأ من التقليد الفني المسيحي المحلي. هذا التقليد الشرقي له أثره الواضح في كنائس مار دانيال، إيربي طاش، كوكار، ويولانلو، في حين أنّ الكنائس التي شيدت ابتداءً من القرن الحادي عشر فقدت ذلك المزيج وأصبح الفن فيها يخضع لاعتبارات أكثر كلاسيكية وأرستقراطية كتلك التي نجدها في مناطق أخرى من غوريمي.

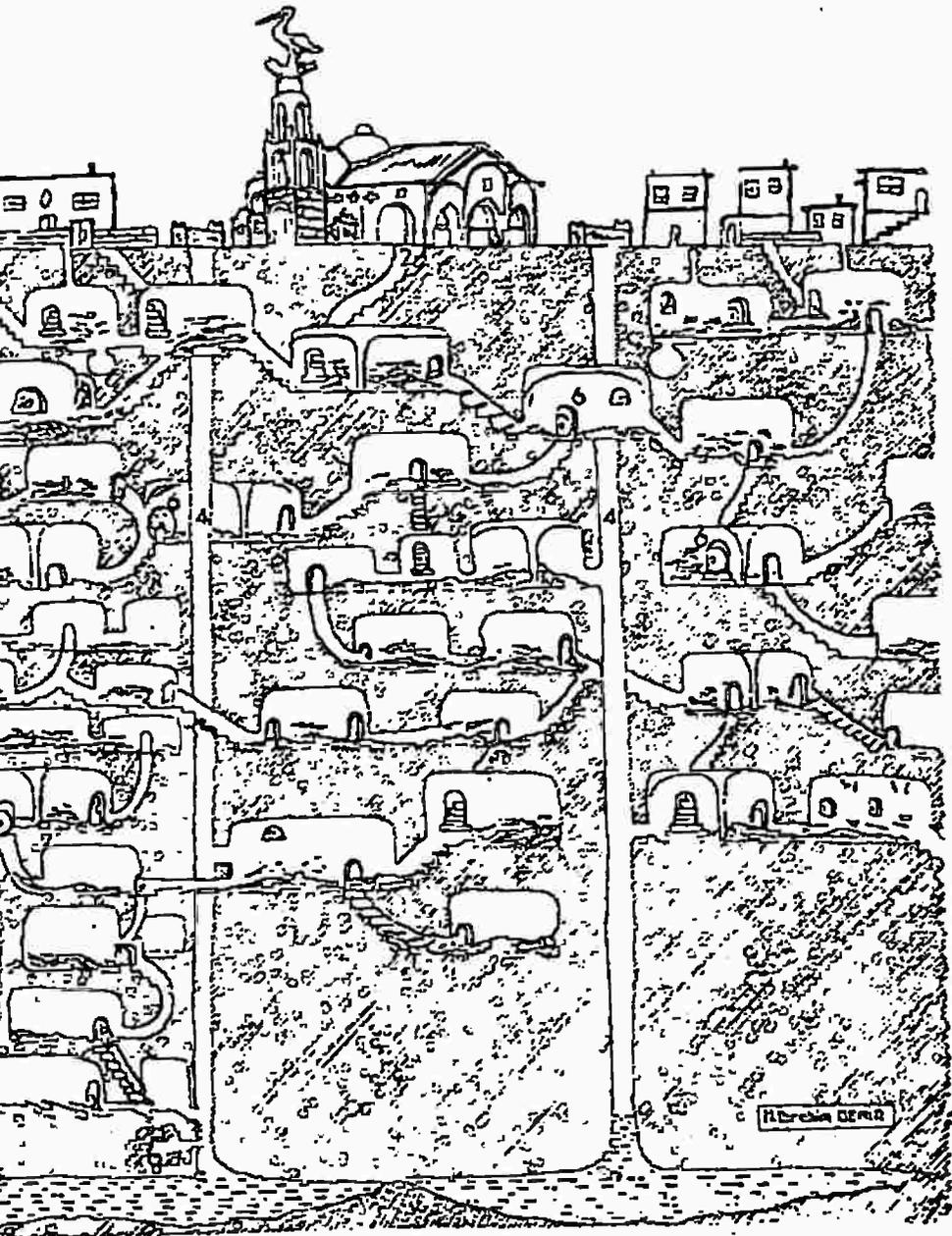
ومن الكنائس القديمة التي لا يزال التأثير الشرقي واضحًا في جدرانها وسقفها وقبائها، كنيسة كوكار أو كنيسة العطر، وقد بقيت فيها الأيقونات سليمة بعض الشيء، إلا أنّ بعض الكلس يتساقط من القبة ومعه أجزاء من الأيقونات ذاتها. تعود الموضوعات، في هذه الكنائس، في غالبيتها إلى حياة السيد المسيح من الطفولة إلى الموت فالقيامة. ومن

الرسوم اللافتة: تكريم المجوس وعلى رؤوسهم التبعة الشرقية وإلى جانبهم الرعاة الخمسة ساتور وأريبو وتيت وأوبرا وروطاس، والعشاء السرّي وفيه الشيطان شيبوزي ملتصق بيروضاس، واعتقال السيّد، وإلى جانب هذا الرسم الأخير رسم آخر يمثل زوجة ييلاطس تهمس في أذن زوجها بأن يترك تلك القضية. وهذه الرسوم، بالإضافة إلى العنصرة والصعود، تذكر بالرسوم الشرقية المسيحية مع شيء من التأثير البيزنطي.

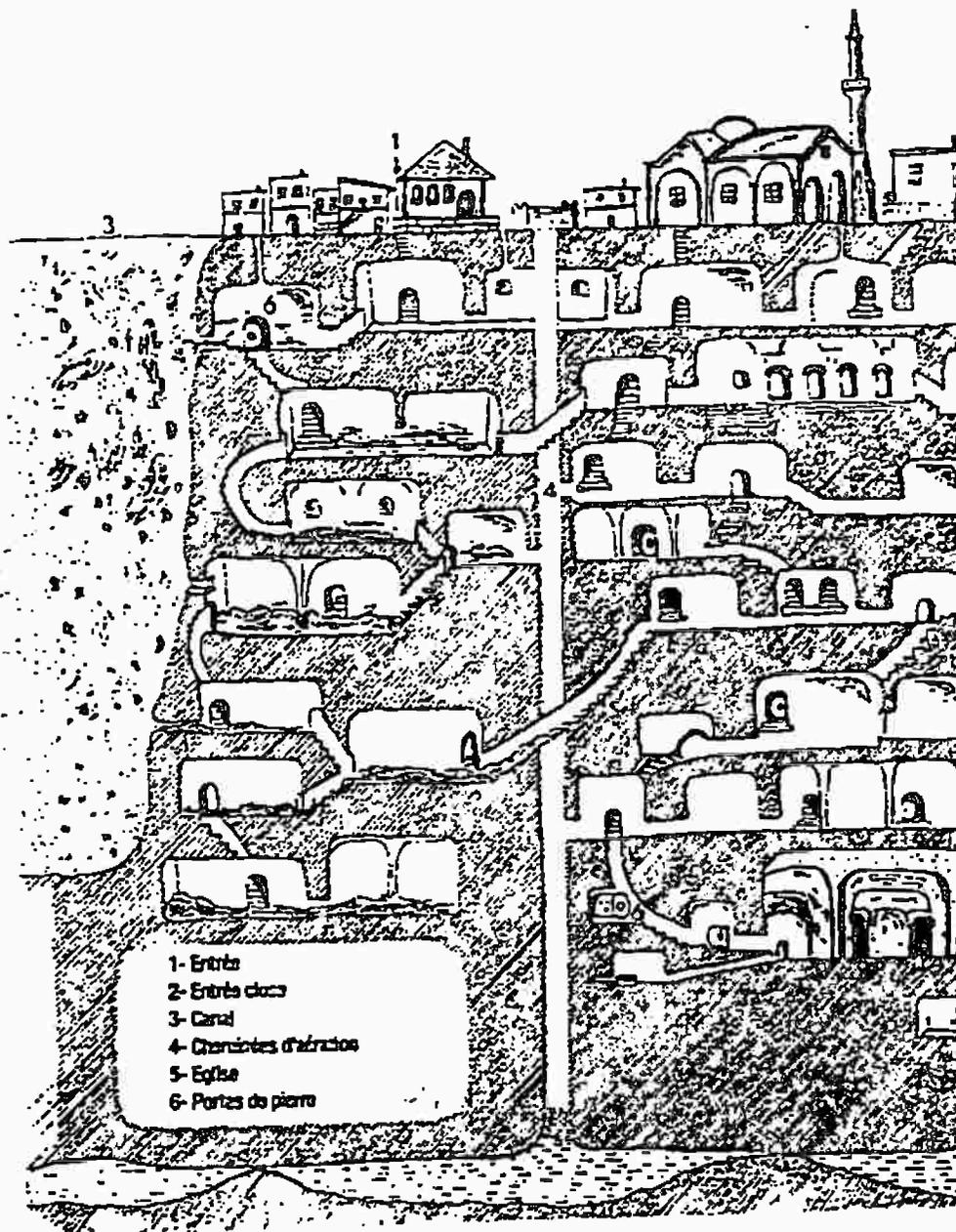
وفي كنيسة أخرى هي الكنيسة ذات الحية، من القسم الأوّل في القرن العاشر، تصميمها في شكل صليب، والقبا كما هو معروف، في الشرق منه. القبة الداخليّة المحفورة في الصخر، وجدران الكنيسة، كلّها مرسومة بالزيتيات والأيقونات المختلفة. على جدران المدخل، ترى السيّد المسيح في يوم الدين دياناً، وحوله ملاكان وإلى يمين الملاكين ويسارهما شيوخ سفر الرؤيا ومجموعة من الشهداء. وترى كذلك مشهداً من زنة الأنفس ومشهداً آخر من الجحيم. في هذا المعبد، تصير الزيارة فعل عبادة، والنظر إلى هذه الأيقونات نظراً روحانياً واشتراكاً في الحياة الرجائية، كما لو أنّها لا تزال حية اليوم. اللون اللازوردّي الذي يغطّي كلّ المساحات غير المرسومة بالأيقونات هو مدخل إلى عالمين: عالم السماوات والألوهة، وعالم الوجود والمشاهد والأيقونات المختلفة المرسومة على جدران الكنيسة. فزيارة هذه المعابد، الزاخرة بالماضي وأمجاده، فخرٌ بذلك الماضي الذي شهد حضوراً فريداً للكنيسة في تلك المنطقة، وفي الوقت عينه حرقه وحمرة على الماضي الذي ذهب ضحية التايخ.

### إلى الكنيسة الحمراء

ونغادر وادي إيهلارا والمياه والخضرة والنهر صغرداً متوجّهين إلى محطتنا الأخيرة في منطقة كبدونية قبل الرحيل إلى الساحل التركيّ. وجهتنا كانت كنيسة فريدة من نوعها، هي الكيزيل كيليه (أي الكنيسة الحمراء)، من القرن السادس. إلا أنّ هذه الكنيسة ليست على طريق



مخطط مدينة ديرينكويو تحت الأرض



- 1- Entrée
- 2- Entrée cloacé
- 3- Canal
- 4- Chemins d'évacuation
- 5- Eglise
- 6- Portes de pierre

سياحية أو في إطار جولة عادية من الجولات السياحية، لذلك كان صعباً بعض الشيء العثور عليها، إلا أن دقة الدليل السياحي الأزرق كانت أقوى من المجهول وعين السائح أفضل مرشد له. فاجتازنا مدينة غوزيلبورت، ثم بعد مسير ساعة من الزمن بالسيارة وصلنا إلى بلدة سفريهيزار إلا أننا لم نجد ضالّتنا. ويعد اجتياز البلدة التي تلتحف جبلاً صغيراً وقف على قمته برج بيزنطي ضربه الخراب من جوانبه، وصلنا إلى سهل تتماوج فيه سنابل القمح الذهبية، فأشار أحد رفاق الرحلة، وهو الأمين قائد السيارة، إلى اليسار بإصبعه فبانت لنا الكنيسة في عمق السهل، وقد أصبحت الطريق المؤدية لها وراءنا. عدنا أدراجنا للسير في طريق زراعية ترابية للوصول إلى الكنيسة الحمراء الواقعة وحيدة، مجهولة، بانسة، حيث لا لافتة أو إشارة تشير إلى وجود هذا الأثر التاريخي المسيحي العظيم الرابض على علو ١٥٠٠ متر تقريباً. بُنيت هذه الكنيسة في العام ٦٠٠ على وجه التقريب بتصميم بسيط هو تصميم الصليب، تعلوها قبة عظيمة جميلة لم يصلها الخراب بعد، وهي، على ما يبدو للعيان، كانت مليئة بالرسوم والأيقونات من الداخل، ولقد سُميت الكنيسة الحمراء لأن حجارتها ملونة بالأحمر. أما هندستها فإنها تشير إلى تأثيرات أرمينية وسريانية معروفة في منطقة الحسن دايي، جبل الحسن.

والكنيسة هذه في سفريهيزار ليست الوحيدة من كنائس كبدوقية التي تحمل سمات الشرق. ففي مختلف قرى المنطقة على ما يبدو، وبحسب معلومات الأدلاء، ما زالت تنتصب الكثير من الكنائس العريقة في قدمها، الضاربة في عمق الزمن، وبعضها تحوّل إلى أخربة، إلا أن السياحة السياحية لا تأخذها بعين الاعتبار، نظراً إلى عدد الآثار السياحية في منطقة كبدوقية. والتأثير الشرقي يتبين في الأمور التالية:

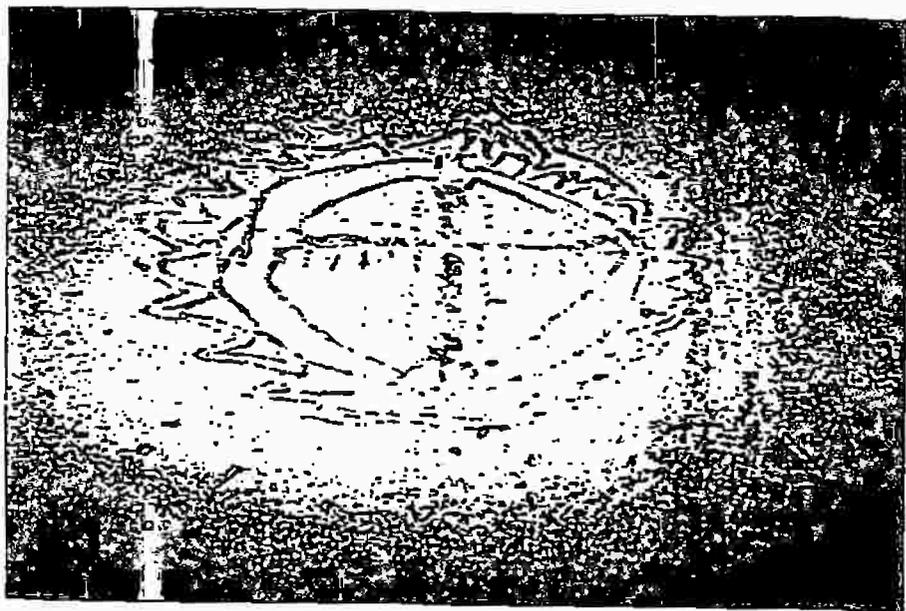
- إن تصميم الصليب مع قبة في وسط الكنيسة على ملتقى أطرافه نلاحظه في الكنائس السورية - الفلسطينية. أما القبا المحمّس الأضلاع المتدفع نحو الخارج على شكل نصف دائري من الداخل فهو من خصوصية الأبنية الكبدوقية.

- الجدران هي بسماكة حوالى المتر ورتف، وهذه التقنيّة اعتمدها الأبنية في أرمينيا منذ القدم للدفاع عن نفسها إزاء الزلازل والهزّات المتواترة الوقوع في تلك المنطقة.

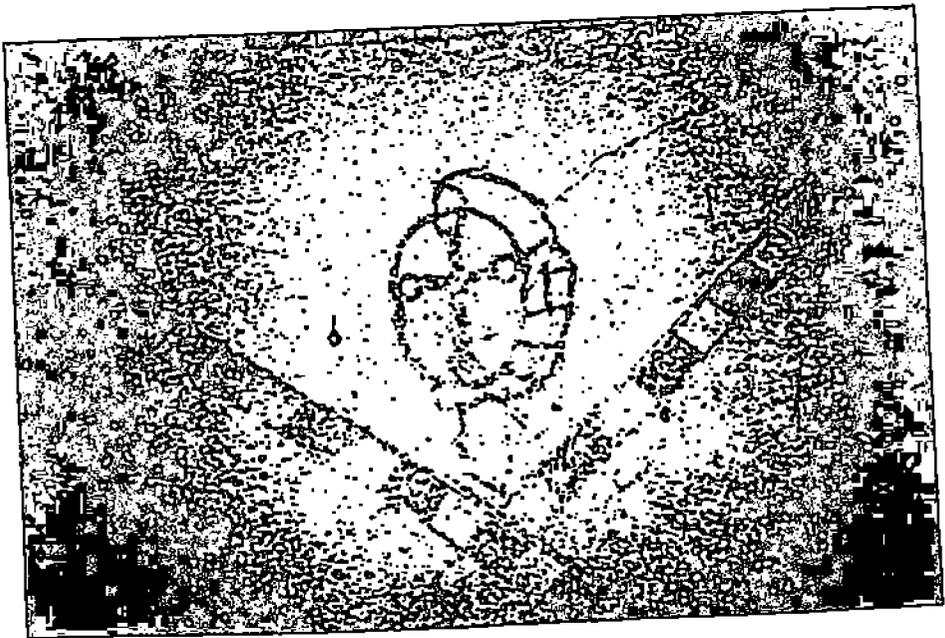
- واستوحت هذه الكنائس بعض الفنّ والتقنيّة السريانيّة، حيث إنّ الزينة هي بسيطة حول الأفاريز والنشحات. أمّا الرسم الأيقونيّ الذي يغلف الجدران والمنحنيات فهو من الخصوصيّة الكبدونيّة.

وبعد نظرة وحسرة على الكنيسة الحمراء في عزلتها وطريقها إلى الزوال، نغادر منطقة إيهلارا عن طريق مدينة نيده وقد أشار علينا العارفون بالأّ نسلك الساحل عن طريق مرسين باتجاه كارمان وآلانيا على الساحل، إلّا أنّ هذه المجازفة كانت مغامرة فاشلة حيث واجهتنا طريق غير معبّدة. عدنا أدراجنا صوب بوزكير وسيدشهير وأخذنا الطريق الجبلّي مرّة ثانية صوب مانفاغات ثمّ أنطاليا التي بلغناها في العاشرة ليلاً.

غادرنا كبدونية وإيهلارا والكنيسة الحمراء، والسؤال على اللسان: لماذا لا تتحرّك الأوساط الدوليّة الثقافيّة وغيرها من المراجع المسيحيّة الأرثوذكسيّة على سبيل المثال، لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من تراث المسيحيّة وحضارتها في تلك البلاد؟ خصوصًا وأنّ الأخطار تترصدها من كلّ حدب وصوب: أخطارًا من الطبيعة والسماء، وأخطارًا من الأرض والبشر. هل تصمد كبدوقيه أمام الزمن العاتي؟ وهل تبقى أثرًا سياحيًا يرمز إلى حضارة فريدة وإلى روحانيّة متأصلة؟ الصوت هنا لا يكفي، وحتى الأصوات لا تكفي للمناداة بحقّ تلك الآثار، خصوصًا المعابد والأيقونات فيها. لكن لا بدّ من رفع الصوت لتبقى الروح، روح المسيحيّة في كبدونية، تنادينا من وادي غورومي، من وادي إيهلارا، من أفانوس، ومن الكنيسة الحمراء.



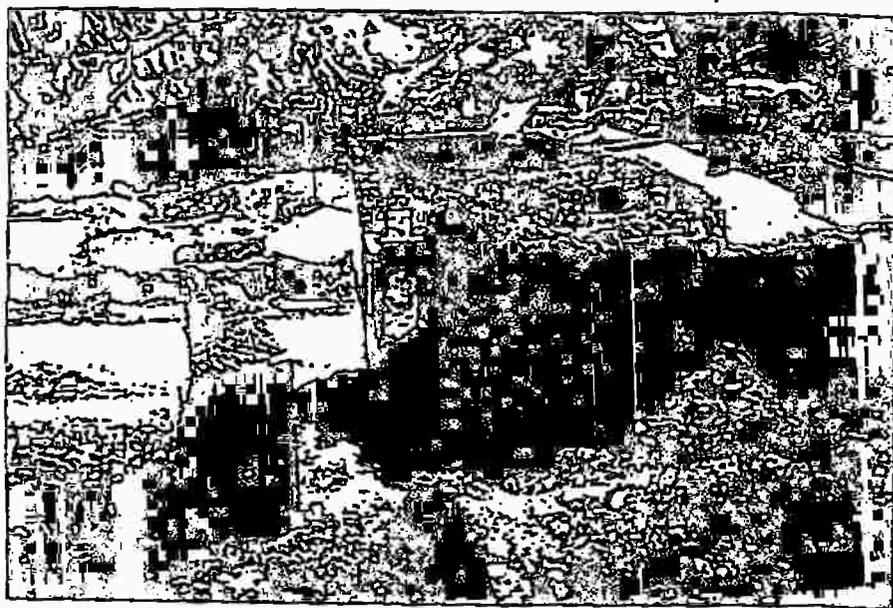
الصليب على واجهة مدخل كنيسة



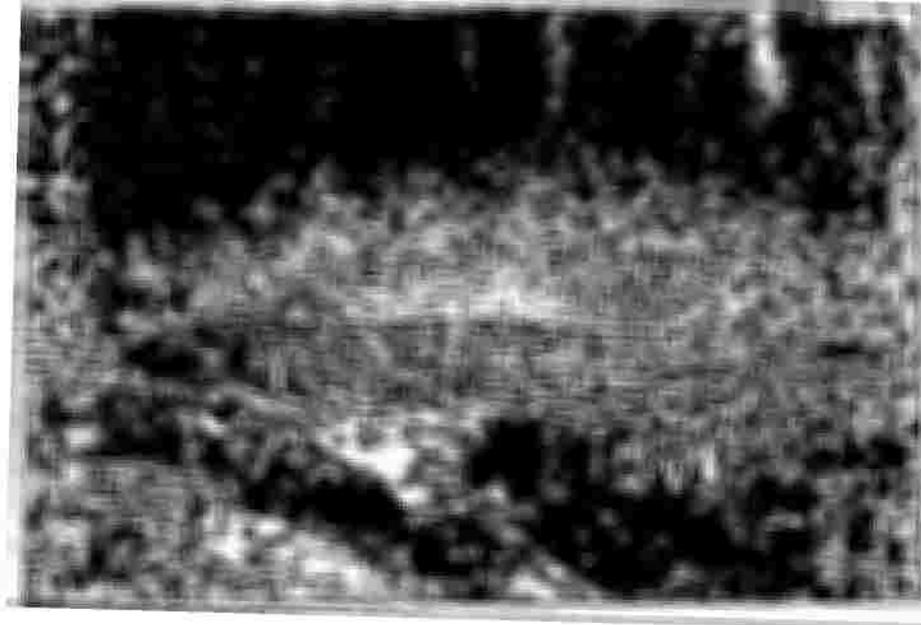
الصليب على واجهة مدخل كنيسة



زلفه، وادي المتاسك



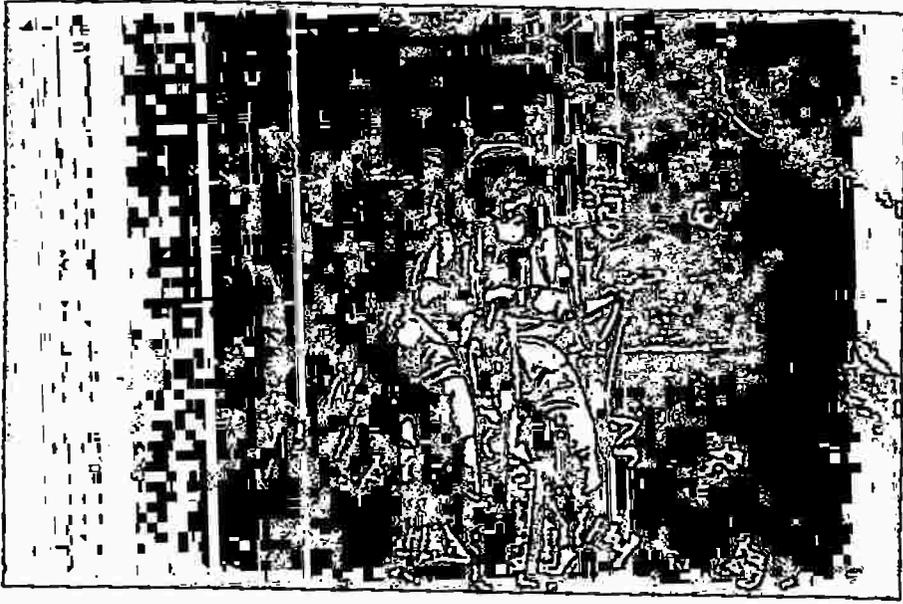
منازل المسيحيين البيزنطيين المهجورة



منظر عام لمنطقة غوريمي



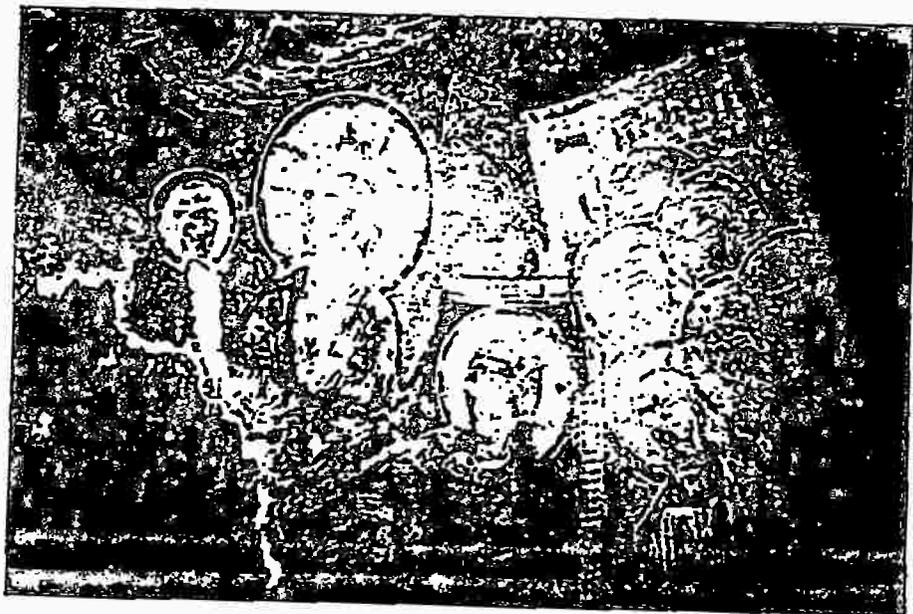
بقايا الأيقونات في إحدى كنائس إيهلارا



السيد وتلاميذه



وادي إيهلارا المقدس



ناحة السيدة العنراء في إيهلارا وغوريمي



الكنيسة الحمراء في سفريبيزار